المنهج الثابت فى القرآن الكريم

قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[١] وقارئ القرآن الكريم يجد فى كل ما يتصل به آيات صدق هذه الآية . فللقرآن نظام يختلف عن نظام كل كلام سبقه للبشر . سواء كان هذا الكلام للعرب أو لغيرهم ، وسواء كان هذا الكلام شعراً أو نثراً مرسلا أو موزوناً . فقد قسم إلى آيات ، وضمت الآيات سور ، واختلفت الآيات والسور ، فى الصياغة والمعنى ، والأسلوب والمعنى ، والأداء والموسيقى ، عن كل ما أنتجته وأبدعته قرائح الكتاب والشعراء ، على مر الحقب والعصور .

ولكن لهذا النظام الثابت من حيث الصورة والشكل ، منهج داخلى ثابت كذلك ، قد لاتلمحه العين ، إلا بعد تثبت وروية ، ولكن هذا المنهج الداخلى ، على خفائه ، أدل على أن منهج القرآن جزء من نظام قائم بدوره على قواعد ثابتة ، هى فطرة الناس التى فطرهم الله عليها من جهة ، والنواميس الدائمة للكون من جهة أخرى .

ولسنا نستطيع أن نحصى جميع الدلائل على وجود هذا المنهج ، ولكن فى الوسع أن نجتزئ ببعضها . وقد يدل الجزء على الكل ، كما يشير القليل إلى الكثير .

فمن عناصر هذا المنهج الثابت :

أولا : لا يأتى ذكر الخير والشر ، فى موضع من القرآن ، إلا كان ذكر الخير سابقاً على ذكر الشر ، كما تسبق الحسنات السيئات ، والثواب العقاب .

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

ثانيًا : لا يذكر الجهاد ، أو لا يدعى الناس إليه إلا كان الجهاد بالمال سابقًا للجهاد بالنفس .

ثالثًا : لا يذكر الكثير إلا والقليل رجحت كفة القليل .

رابعًا : لا تذكر أنعم الله على الناس ، إلا سبق السمع والبصر .

خامسًا : لا يشار إلى العبرانيين ، فى مواضع الرضا عنهم ، أو تذكيرهم بفضل الله عليهم ، إلا وسموا باسم بنى إسرائيل ، ولا يشار إليهم فى مواضع السخط عليهم ، وتعديد سيئاتهم إلا وسموا باسم « اليهود » أو الذين هادوا .

فإذا بدأنا بأول هذه العناصر ألفينا ما نشير إليه من تقديم الخير على الشر فى السور القصار والسور الطوال على السواء ، ومن ذلك : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فى سورة الزلزلة ، وفى سورة التين : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) ، وفى سورة الليل : (إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) ، وفى سورة الشمس : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) ، وفى سورة البلد : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) ، وفى سورة الفجر : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) ، وفى سورة الأعلى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى) ، وفى سورة الانفطار : (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) ، وفى سورة عبس : (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) . وتقديم الخير على الشر ، والتبشير على التنفير ، والثواب على العقاب ، والجنة على النار ، منهج يتفق مع

طبيعة الإسلام[٣]، باعتباره دين الفطرة : فالأصل فى الإنسان فى نظر الإسلام : الخير ؛ بدلالة صريح نص آية التين : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .

فالشر طارئ على الإنسان : لم يخلق به ، وقصة آدم فى القرآن ، وهى القصة التى تروى خلق الإنسان ، تؤكد أن الإنسان خلق صالحاً قابلا للخير ، قادراً على إتيانه ، وإن كان قد سقط فى المعصية ؛ فلأنه لم يقاوم الغواية التى أتت إليه من خارج نفسه ، لذلك أمر بأن يتحصن أمامها ، بالإيمان أو بالتقوى ليعصاه من التردى فيها . فالله تعالى يقول فى سورة الأعراف فى الآية العاشرة وما بعدها : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين)، وقال : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ، وفى سورة الحجر فى الآية الثامنة والعشرين : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون) ، وفى الآية الثلاثين من سورة البقرة : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) .

وهذه الآيات كلها ناطقة الدلالة بأن آدم كان محل رضاء ربه ، فقد سواه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها دون الملائكة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، فسجدوا له كلهم أجمعون ، وقد خاطب آدم ربه هو وزوجه ، فدعاهما إلى أن يتمتعا بالجنة وخيراتها ، وأن يأكلا رغداً منها حيث شاءا بغير حسيب ولا رقيب ، وكل أولئك دلائل الرضاء ، ودلائل استحقاق آدم وزوجه هذه الأنعم ، لولا أن الشيطان قد تصدى لهما ، فأغواهما وأزلهما عنها ، (فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ،

قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وهذه الأدوار كلها تجملها آيات سورة التين : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

فالخير أصل الإنسان ، وفطرته التى فطر عليها . إلا أنه ضعيف ، وقد توعده الشيطان بالغواية . فمن تبع الشيطان فقد تردى إلى أسفل سافلين ، ولكن من تاب وعاد إلى الإيمان ، واستعصى على الشيطان ، فله أجر غير ممنون .

ومن ثَمَّ كان من الطبيعى أن تسبق الإشارة فى القرآن إلى الخير الإشارة إلى الشر ، والبشرى بالجنة الإنذار بالنار ، وثواب الصالحين المحسنين عقاب الكافرين المذنبين ولو افترض القرآن ، أن الشر أصل الإنسان ، وفطرته التى فطر عليها ، لكانت الدعوة إلى الدين عبثاً من العبث ، إذ لا يستطيع الإنسان أن ينسلخ من طبيعة خلق عليها ، ولا أن يخرج منها ، ولكان الإيمان لوناً من الخوارق لا يتم إلا نادراً ، ولا يتأتى إلا لصفوة الصفوة الذين لا يجود الزمان بهم إلا فى الحقب المتباعدة ، وفى الآماد المتطاولة .

ومن هنا لسنا مع المفسرين الذين يذهبون إلى أن آية : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) قد نزلت فى الوليد ابن المغيرة ، أو كلدة بن أسيد ، كما أننا لسنا مع الذين يفسرون قول الله تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين) بأن الله يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، وهو ما ارتآه الضحاك والكلبى على ما أورده القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن ، ولا مع الذين فسروا (أسفل سافلين) بأنها النار .

فالآيتان تقصدان مطلق الإنسان ، وهما تتحدثان عن الإنسان الذى قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على

صورته » فى رواية : « وعلى صورة الرحمن » فى رواية أخرى .

فمطلق الإنسان ، بجسمه وعقله وروحه ونفسه ؛ وطاقاته العظيمة ، وقدراته الهائلة ، وطموحه إلى الخير ؛ وحبه غير المتناهى للعلم ، وميله إلى المخاطرة ؛ ودأبه على التجديد والتطوير ؛ والكشف والإبداع ، وتضحيته بذاته وماله من أجل فكرة مؤمن بها ؛ أو عقيدة يطمئن إليها ؛ هو تجسيد حى للفظى (أحسن تقويم) ، إلا أن الإنسان يطوى فى بناء جسمه من الأجهزة التى أعدها الخالق سبحانه وتعالى لتبقى على الإنسان الفرد ، وعلى الإنسان الجنس ؛ وهما غريزتا حب الطعام والتناسل ، وهما جهازان يجعلانه قريباً من الحيوان شبيهاً له ، بل أكثر ضراوة منه ، وأشد ميلا إلى الفتك والقتل ، وأبرع فى ابتداع أسباب الدمار والهلاك ، لنفسه ولجنسه ، ولذويه وأهل وطنه وملته . وهو بهذا يهبط إلى أسفل سافلين ، متأثراً بغواية الشيطان ، فالإنسان قابل للغواية ، بحكم غرائزه اللازمة للإبقاء عليه فرداً وجنساً : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً) .

ومن هذا كله كان منهج القرآن قائماً على تقديم الخير على الشر ، وتقديم التبشير على التنفير ، وتقديم الحسنات على السيئات ، فمنهج القرآن : الأخلاق ، وهدفه التربية والتقويم ، ولا أمل فى دعوة ولا نصيحة . ولا دين أو عقيدة ، إلا إذا اطمأن الإنسان إلى أن أبواب الخير مفتوحة أبداً ، وأن السعى من أجل الآخرة ، والمثل الأعلى ؛ متيسر على الدوام ، وهذا ما فعله القرآن ؛ ونجح فيه كأعظم ما يكون النجاح .

وقد يتصل بهذا العنصر الأول من عناصر المنهج القرآنى الثابت أن يكون الجهاد بالمال سابقاً على الجهاد بالنفس ، والأمثلة على ذلك :

(إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله)[1] (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم

---

(١) سورة الأنفال : ٧٢ .

أعظم درجة عند الله)[١] ، (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم)[٢] . (انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله)[٣] ، (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)[٤] .

فما سر تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد ؟

السر فى ذلك هو منهج الإسلام أيضاً فى كل ما يتصل بالدعوة إلى الدين . فالإسلام باعتباره دين الفطرة من جهة ، ودين التقويم والإصلاح والتسامى بالإنسان إلى أعلى المراتب حتى يكاد يبلغ مرتبة الملائكة من جهة أخرى ، يبدأ بالإنسان من حيث هو . فيقر للإنسان بما عليه من قصور ، وخوف ، وحرص على ما وجد عليه آباءه وأجداده ، وكراهية للتغيير والتطور ، وإشفاق من بذل المال ، وفرار من مواطن التضحية بالنفس . فالإنسان هو كذلك ، بادئ ذى بدء ، ولكن النفس الإنسانية أشبه بالمنجم العميق ، الذى إن أحسنت التنقيب فيه ، والوصول إلى أعماقه وجدت الجواهر والذخائر ، وبهرك ما فى باطنه من نفائس و بدائع .

يبدأ القرآن بتقرير الواقع البشرى فيقول فى الآية الرابعة عشرة من سورة آل عمران : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

هذه حقيقة ثابتة لا ينفع إنكارها ، ولا إغماض العين عنها .

والحقيقة الثانية المتفرعة عن الحقيقة الأولى: أن الإنسان حريص على المال ، أكثر من حرصه على البنين ، لذلك قال القرآن : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ، (عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين) ، (إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً) .

---

(١) سورة التوبة : ٢٠ .
(٢) سورة التوبة : ٨٨ .
(٣) سورة التوبة : ٤١ .
(٤) سورة النساء : ٩٥ .

ومن هنا ، كان امتحان الله للناس ، بما ينزله بهم من الجوع ونقص الأموال مثل نقص الأنفس : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) .

هذا كله سبب لتقديم المال على النفس فى آيات الجهاد ، وسبب آخر يتصل بتاريخ الدعوة الإسلامية ، ففى خلال ثلاثة عشر عاماً قضاها المسلمون فى مكة ، مهبط القرآن الأول ، وموطن الدعوة فى أولى مراحلها ، كان سبيلهم فى معاملة المشركين دفع السيئة بالحسنة : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ؛ لذلك كان الجهاد بالمال هو أول ما يدعى إليه المسلم ، وكان المشركون وكفار قريش يسلكون سبيل مقاطعة المسلمين الأوائل ، ويقبضون أيديهم على المال ، حتى لا يصل إلى أنصار محمد ، مؤملين أن يصرفهم الجوع وقلة الزاد عن البقاء معه فى صفوف الإسلام : (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) .

والسبب الثالث فى تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد هو سنة التطور والتدرج التى سلكها الإسلام فى كل ما فرضه على المسلمين ، فكما تدرج فى تحريم الخمر ، وفى تحريم الربا ، وفى فرض العبادات على المسلمين ، بما فيها من صلاة وزكاة وحج ، فقد أخر الإسلام فرض الجهاد بالسلاح ، وردّ العدوان بالقوة حتى اكتمل إيمان المسلمين ، وألفوا الحرمان فى سبيل العقيدة ، وتدربوا على أداء تكاليف الدعوة الروحية ، التى هى عصمة المقاتل ، وسر ثباته ، ومصدر قوته ، فالذراع التى تحمل السلاح هى التى تضرب وليس حد سيف ، وقلب المقاتل ، هو عدته وليس قوة بدنه .

ولا يهول المقاتلين الأوائل ، والمجاهدين الرواد ، فى مطلع الدعوات ، ومفتتح الحركات ، شىء ككثرة خصوم الفكرة الجديدة ، أو الدعوة الوليدة ، ولا يفتّ فى عضدهم مثل قلتهم هم . ومن هنا حرص القرآن

الكريم ، على التهوين من شأن « الكثير » الخبيث ، والإعظام من شأن « القلة » المختارة ، المؤمنة بالقرآن .

وكالعهد بالقرآن يضع القاعدة العامة ، ثم يردفها بما يفصلها ، ويبين أحكامها ، ويضرب الأمثلة على صحتها . فالقاعدة فى شأن الكثرة والقلة ترد فى الآية المائة فى سورة المائدة : (قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث) ، ثم ترد هذه القاعدة أكثر تفصيلا فى الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين فى سورة البقرة (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) .

ثم تتوالى بعد ذلك الأمثلة على قلة جدوى الكثرة فى ذاتها ، وبعضها يؤخذ من حياة المسلمين أنفسهم ، كما ورد فى الآية الخامسة والعشرين فى سورة التوبة : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) .

وبعد ذلك لا يرد الكثير ولا الكثرة إلا مشفوعيْن بما يهون من أمرهما ويحط من قدرهما إذا كانا مجرد كثرة : (لا خير فى كثير من نجواهم) ، (وإن كثيراً من الناس لفاسقون) ، (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) ، (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) .

ويخاطب الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) ثم : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

ثم يعود القرآن يصف كثرة الناس بالعيوب التى تتسم بها الكثرة عادة ، قبل الإيمان والهداية : (وإن أكثركم فاسقون) ، (ولكن أكثرهم للحق كارهون) ، (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، (وما يتبع أكثرهم إلا ظنًّا) .

بقى أن نضرب مثلين على المنهج الثابت للقرآن الذى تلمحه العين ، على خفائه ، يسرى فى آيات القرآن سريان الماء فى النبات ، يبدأ من

الجذور إلى الساق إلى الفروع ؛ ويبعث فيه الحياة .

المثل الأول هو تقديم السمع على البصر : فى كل موضع فى القرآن، عددت فيه أنعم الله على الناس ؛ وذكرت الجوارح التى يتصل عن طريقها الإنسان بالعالم الذى يعيش فيه .

يتقدم السمع على البصر باعتبارهما نعمتين من نعم الله ؛ ويتقدم السمع على البصر عندما يذكران فى موضع حرمان الكفار والمشركين والضالين منهما ؛ باعتبارهما رمزاً على الهداية ؛ وأداة للإيمان ؛ ويتقدم السمع على البصر عندما يذكر القرآن الكريم أسماء الله الحسنى وصفاته جل وعلا . فلننظر إلى الأمثلة لنر هذا الثبات المثير لأعظم الدهشة : (قل من يرزقكم من السماء والأرض ؛ أمن يملك السمع والأبصار) (١) .

(ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) (٢) .

(وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) (٣) .

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (٤) .

(وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) (٥) .

(ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار) (٦) .

(قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم) (٧) .

(أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم) (٨) .

(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) (٩) .

(حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) (١٠) .

(والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) (١١) .

---

(١) سورة يونس : ٣١ .
(٢) سورة هود : ٢٠ .
(٣) سورة النحل : ٧٨ .
(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٥) سورة المؤمنون : ٧٨ .
(٦) سورة السجدة : ١٩ .
(٧) سورة الأنعام : ٤٦ .
(٨) سورة فصلت : ٢٢ .
(٩) سورة البقرة : ٥ .
(١٠) سورة فصلت : ٢٠ .
(١١) سورة المجادلة : ١ .

(فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً) (١) .
(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) (٢) .
(صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (٣) .
(قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) (٤) .
(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) (٥) .
(أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) (٦) .
(والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) (٧) .

وفى القرآن ما يزيد على ثلاثين موضعاً وصف فيه الله تعالى وتبارك ذاته بأنه (السميع العليم) ، يمكن الرجوع إليها .

ولم يأت هذا التقديم اعتباطاً ، وإلا ما التزمه القرآن من أوله إلى آخره التزاماً دقيقاً ، ولكن لهذا الترتيب ما يسوّغه .

أولا : فالسمع هو أسبق حواس الطفل إلى وصله بالكون الذى نعيش فيه . فعينا الطفل تقع عليهما المرئيات دون أن تنقلا إليه معنى ، لأن الصورة لاتفهم فى ذاتها إلا مرتبطة بقدر من المعرفة لا يتأتى للطفل ، فى حين أن الطفل يستجيب لدى أول ميلاده للأصوات المزعج منها والمؤنس ، ولذلك يحصن الطفل ضد صدمات الصوت ، بما يبعثونه فى بلادنا من أصوات فى اليوم السابع لمولده .

ثانياً : إن حاسة البصر على علو مقامها عند الإنسان لا تبلغ حاسة السمع فى اتساع المدى ، وفى القدرة على الشمول والإحاطة . فالإنسان يرى فى اتجاه واحد ، فى حين أنه يتلقى الأصوات فى آن واحد من كل جهة تحيط به . سواء كان مستقبلا مصدر الصوت أو مستدبراً .

---

(١) سورة النساء : ١٣٤ .
(٢) سورة محمد : ٢٣ .
(٣) سورة البقرة : ١٨ .
(٤) سورة طه : ٤٨ .
(٥) سورة الأنعام : ٢٩ .
(٦) سورة الزخرف : ٤٠ .
(٧) سورة الفرقان : ٧٣ .

وسواء كان السامع فى الخلاء أو وراء جدار داخل أبنية ؛ فالإنسان يسمع وهو فى فراشه ، ملتحف بغطائه ، صوت الذئب فى الحقل أو الغابة ، وبينه وبين مصدر الصوت أمتار وأمتار ؛ وهو لا يدرى فى أى موقع من الغابة أو الحقل يكمن صاحب الصوت . كما يسمع وهو جالس فى بيته بين أهله أصوات البنادق والمدافع ، تقع على بعد أميال منه ؛ ويميز بين صوت وصوت ؛ ثم إن أكثر معرفة الإنسان عن أذنيه . ويرمز بالسمع للطاعة والهداية والانقياد . والعلم الحديث جعل السمع وسيلة الاتصال بالدنيا كلها عن طريق أجهزة الاستماع التى بلغت كفايتها إلى أبعد الحدود وأعلاها . أما الإذاعة المرئية فلا تزال متخلفة وراء الإذاعة المسموعة بكثير ، وإن كان من الممكن أن تلحق بها عن طريق الأقمار الصناعية .

ثالثًا : إن فقدان البصر مصاب جلل عند الإنسان ، ولكن الأعمى يبقى على اتصال بالجماعة التى يعيش فيها بفضل حاسة السمع ، أما الأصم فتنعدم صلته بالجماعة ، إذ لا يملك وسيلة للتفاهم معها ، وتلقى عواطفها ومشاعرها ، والوقوف على آرائها وخواطرها .

رابعًا : وصف الله تعالى ذاته بأنه سميع ، لأن السمع ، معناه عند عباد الله الاستجابة لهم ، والرحمة بهم ، والعطف عليهم ، والمغفرة لذنوبهم . فى حين أن البصر معناه ، مراقبة أعمالهم ، والوقوف على ما يخفونه من أخطائهم وآثامهم . والناس لا تكف عن التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، تلتمس عنده العون ، وتطلب منه الثواب .

* * *

للعبرانيين فى القرآن اسمان فهم تارة : « اليهود » ، وتارة ثانية : « بنو إسرائيل » . ولكن الاسم الأول ، لا يرد إلا فى حالة الغضب والتنديد فى حين لا يرد الاسم الثانى إلا حيث يذكر الله أنعمه على بنى إسرائيل ، أو يذكرهم بها ، أو يعبر عن رضاه عنهم ، فى مرحلة من مراحل حياتهم كثيرة التقلب .

ولليهود اسم ثالث . هو « الذين هادوا » وهو لا يرد فى الأغلب الأعم إلا فى حالتى السخط عليهم أو التنديد بسيئات أعمالهم عدا موضع أو موضعين .

وإليك الشواهد على ما قدمنا :

— (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (١) .

— (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) (٢) .

— (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) (٣) .

— (ما كان إبراهيم يهوديًا) (٤) .

— (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) (٥) .

— (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) (٦) .

— (ومن الذين هادوا سماعون للكذب) (٧) .

— (قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت) (٨) .

أما اسم « بنى إسرائيل » فيرد فى المواضع التالية :

— (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) (٩) .

— (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات) (١٠) .

— (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) (١١) .

— (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) (١٢) .

ومسوغ هذه التفرقة أن إسرائيل هو يعقوب ، ويعقوب هو من

---

(١) سورة المائدة : ٢١ .
(٢) سورة المائدة : ٦٤ .
(٣) سورة التوبة : ٣٠ .
(٤) سورة آل عمران : ٦٧ .
(٥) سورة النساء : ٤٦ .
(٦) سورة النساء : ١٦٠ .
(٧) سورة المائدة : ٤١ .
(٨) سورة الجمعة : ٦ .
(٩) سورة الأعراف : ١٣٧ .
(١٠) سورة يونس : ٩٣ .
(١١) سورة طه : ٩٠ .
(١٢) سورة الجاثية : ٦ .

أنبياء الله ؛ وهو ابن نبى هو إسحق ؛ وحفيد نبى هو إبراهيم ؛ فهو حلقة فى سلسلة صالحة من الأنبياء والصالحين ؛ فنسبة أحفاده إليه ؛ وتسميتهم باسمه ، أقرب إلى الإعزاز والتدليل منه إلى مجرد التسمية المجردة من العطف أو السخط . ولذلك لا يستقيم القول أن ننسب اليهود إلى أبيهم الذى اصطفاه الله على الناس ، واختاره للرسالة ، ثم يلعنون أو تذكر سيئاتهم.

أما اسمهم العام ؛ الذى لا يذكر فيه اسم أبيهم ؛ فلا بأس من إيراده مقرونًا بما يستحقونه من التعنيف والتنديد .

* * *

لعلنا استطعنا أن نتبين هذا المنهج الثابت فى القرآن الذى توزن فيه الألفاظ مهما صغرت ، والأسماء مهما دقت ، بميزان عام شامل ، يستند إلى روح الإسلام ، ونظره إلى الأمور ، وإلى الأعمال ، فلا يشذ عن هذا المنهج لفظ ولا عبارة .

وقد لا نتبين ما فى هذا المنهج وبنائه من إعجاز إلا إذا ذكرنا أن القرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة ، وأنه نزل منجمًا على مدى اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يومًا ، وأنه نزل فى مائة وأربع عشرة سورة ، وأن عدة الآيات فى هذه السور ٦٢٣٦ آية .

ولم ينزل القرآن على رسول الله فى بلدة واحدة ، بل نزل بعضه فى مكة ، وقدر ذلك ١٩ جزءاً من ثلاثين جزءاً يحتويها القرآن ، والباقى وقدره ١١ جزءاً نزل فى المدينة ، ونزل بعض القرآن فى مواضع بين مكة والمدينة ، ونزل فى السلم والحرب ، والهزيمة والنصر[1] ، وفى فترات الشدة ومراحل الفرج ، أفلا يكون لكل هذا الزمن الطويل ، وهذه التقلبات الكبيرة ، والشدائد المتلاحقة ، أثر فى هذا المنهج ، فيبقى ثابتًا لا يهتز ، واضحًا لا يغمض ، واحداً لا يتعدد ؛ فهذه آية من آيات إعجاز القرآن ، جديرة بأن تستوقف النظر ، وتملأ النفوس إعجابًا ، وتملأ القلوب خشوعًا .